

روابط الجوار لدى الزوافرية

Neighborhood relationships between Zouafriya

عبد الواحد خواضي، جامعة الحسن الثاني-الدار البيضاء، المملكة المغربية،

الايمل الالكتروني: abdelwahidkhouadi@gmail.com

ملخص:

يسعى هذا البحث إلى التساؤل عن الأطروحة القائلة بأن التمدن يؤدي حتماً إلى تلاشي علاقات الجوار داخل المدن. وذلك عبر دراسة علاقات الجوار عند الزوافرية، فكون الأفراد الذين ينتمون إلى هذه الوضعية الاجتماعية يتصفون بمجموعة من الخصوصيات (غياب العائلة، السكن المشترك ...) تجعلهم في حاجة دائمة إلى نسج علاقات مع الجيران. وانطلاقاً من مقارنة كيفية تقوم على رؤية منهجية وتقنيات كيفية، تم التمييز بين ثلاثة مستويات من روابط الجوار عند الزوافرية، ويتأسس هذا التمييز على درجة القرب أو البعد (المجالي والاجتماعي) بين الجيران. وهذه المستويات هي: الشقة والعمارة والحي. الكلمات المفتاحية: علاقات الجوار، الزوافرية، القرب المجالي، القرب الاجتماعي، التجانس.

Abstract :

This study aims to question the thesis that urbanization leads to a diminution of neighborhood relationships in the city. Our questioning is based on the study of neighborhood relationships between *Zouafriya*, a social category that is characterized by the absence of the family and shared lodging. These characteristics lead them to develop relationships with each other. We made a distinction between three levels of neighborhood relationships by using a qualitative approach of distance or proximity (that can be spatial as well as social) that exists between neighbors. These three levels are : the apartment, the building and the neighborhood.

Keywords : neighborhood relationships, zouafriya, spatial proximity, social proximity, homogeneity.

مقدمة

تشكل العلاقة بين المجال والمجتمع إحدى المواضيع الأساسية في السوسيولوجيا الحضرية. إن لم نقل أهمها على الإطلاق. فالأسئلة التي تُطرح في هذا الحقل المعرفي، دائماً ما ترتبط بالعلاقة بين هذين المفهومين، وأيهما يؤثر في الآخر، وخاصة التأثير الذي يحدثه المجال في العلاقات الاجتماعية، ممّا جعل من المدينة باعتبارها مجاًلاً وقعت عليه سيرونة «التمدّن» (urbanisation) متغيّراً مستقلاً يمكن من خلاله تفسير الظواهر الاجتماعية والتغيرات التي تطرأ عليها.

انطلاقاً من هذه الاشكالية تبرز أهمية هذا البحث، الذي يسعى إلى دراسة علاقات الجوار في وضعية اجتماعية مخصصة، ونقصد طبعاً وضعية الشباب العازب، أو ما نطلق عليه لفظ «الزوافرية» (*zouafriya*) وهذا المصطلح شائك يكتنفه الكثير من اللبس والغموض لأسباب سنذكرها لاحقاً. ولن يشمل هذا البحث كل العلاقات الاجتماعية لدى كل الفئات والشرائح، بل سيحاول أن يكشف طبيعة هذه الروابط ومعرفة مدى تماسكها أو ضعفها في السياق المدروس.

لقد كان موضوع الجوار من بين اهتمامات علماء الاجتماع الأوائل الذين قاموا بالتفكير في المدينة من منظور سوسيولوجي، ومن بين هؤلاء يمكن أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر: «جورج زيمل»، و«ماكس فيبر»، و«لويس ويرث»، ثم «روبرت بارك» وغيرهم. وفي هذا الإطار، فقد استحوذ هذا الموضوع على اهتمام الدراسات السوسيولوجية أثناء الطفرة الحضرية التي عرفتها المجتمعات الحديثة، خاصة بعد الثورة الصناعية، والتي ساهمت في بروز المدن الكبيرة في مختلف مناطق العالم، وتحديداً في العالم الغربي.

1. الدراسات السابقة

بالعودة إلى مرحلة الثورة الصناعية، والتي بلغ فيها النمو الحضري أوجه سواء في أوروبا، أو في الولايات المتحدة الأمريكية، برزت العديد من الدراسات التي اهتمت بتحليل العلاقة بين روابط الجوار ودرجة التمدّن، وكانت الأطروحة التي خلّصت إليها هذه الدراسات، تؤكد وجود علاقة عكسية بين قوة هذه الروابط ودرجة التمدّن. سواء بالنسبة لجورج زيمل وماكس فيبر في أوروبا، أو لويس ويرث وروبرت بارك في الولايات المتحدة الأمريكية فإن نفس الأطروحة تتكرر، وهي أن الكثافة الديموغرافية التي تعرفها المدن تحول دون تعرّف الفرد على أقرانه في المدينة، ممّا يؤدي إلى تلاشي كل أشكال الرابط الاجتماعي، وعلاقات الجوار على الخصوص؛ حيث يصبح هاجس الربح هو المحرك الأساسي في العلاقات «البين فردية» (*interpersonnelles*) داخل المجال الحضري. فالأفراد في المدن الكبرى لا

يربط بينهم إلاّ العلاقات التي تكون من ورائها مصلحة مادية ما، وهذا ما يجعل من النقود المتحكم الأساسي في العلاقات الاجتماعية بين الأفراد كما أكد زيمل (Simmel, 2008).

في مقاله المؤسس للتعريف السوسيولوجي للمدينة: «التحضر كنمط للعيش» أكد لويس ويرث على وجود علاقة عكسية بين درجة التمدّن من جهة، وتراجع علاقات الجوار من جهة أخرى. فقد بيّن أن النمو الديمغرافي في إحدى الجماعات المحلية، يحد من إمكانية التعارف بين أعضاء هذه الجماعة بشكل شخصي ومباشر. وبالتالي، فإن ارتفاع ساكنة المدن ينعكس بشكل مباشر على طبيعة الروابط الاجتماعية بها (Wirth, 1984, p 266). فالتمدّن حسب ويرث، يوازيه تراجع العلاقات المباشرة بين الأفراد. ويمكن أن نفهم عمق هذه العلاقة العكسية عند ويرث، من خلال الخصائص الثلاثة التي تُميز الظاهرة الحضرية من منظوره السوسيولوجي: «حجم السّكان»؛ و«الكثافة»؛ و«عدم التجانس»، فارتفاع نسبة السّكان (الذي ينتج عنه الكثافة وعدم التجانس) يؤدي إلى الحد من التعارف بين الأفراد في المدينة، ممّا يجعل العلاقات الاجتماعية في هذا الوسط تتحول إلى روابط سطحية تؤثر على تجدر الفردانية، أي أن «التساكن والتجاور لا يؤدي إلى انفتاح الأفراد بعضهم على بعض بل يؤدي على العكس من ذلك إلى التوحش الفردي، وإلى العدوانية في النهاية» (المالكي، 2016، ص 158).

إذا انتقلنا إلى السياق المغربي، نجد نفس الأطروحة تتكرر. فالدراسات التي أجريت عن الرابط الاجتماعي، وتحديدًا تلك التي قام بها المعهد الملكي للدراسات الاستراتيجية والقراءات التي نتجت عنها، تؤكد هي الأخرى على تلاشي روابط الجوار بالنسبة للمغاربة. ف 47,4 % من المستجوبين على المستوى الوطني يفضلون العلاقات البسيطة مع جيرانهم (صباح الخير/ مساء الخير)، في حين أن 21,9 % فقط يفضلون الانخراط في علاقات تتأسس على التبادل والزيارات. وقد توصلت هذه الدراسة كذلك إلى أن نسبة المستجوبين الذين يفضلون الروابط البسيطة مع جيرانهم ترتفع عندما تنتقل إلى الوسط الحضري؛ ف 56,1 % من المستجوبين في هذا الوسط يفضلون هذه الروابط، مقابل 34,3 % في الوسط القروي. في حين أن 17,9 % فقط من الساكنة الحضرية تفضل علاقات التبادل والزيارات مع الجيران (IRES, 2012, pp 42-43).

وقد عمل عبد الرحمان رشيق على تفسير هذا التوجه نحو تفكك علاقات الجوار في السياق المغربي، من خلال العودة إلى السياسات العمرانية التي عرفتها المدن المغربية (خاصة مدينة الدار البيضاء)، والتي جعلت الأسر تنطوي على ذاتها، ذلك أن هذه السياسات تقوم على تغييب كل فضاءات الموانسة والترفيه داخل الأحياء (رشيق، 2016). وبما أن هذه السياسات اتخذت بعدًا أمنيًا في عقد الثمانينات، فقد قامت بعزل الأفراد عن طريق منع جميع أشكال التجمّع والتظاهر في الفضاء العام،

الأمر الذي أدى إلى تقليص فرص التلاقي والتعارف بين الأفراد. ومن جهة أخرى، فإن سيرورة التمدُّن والانتقال الديمغرافي الذي عرفته المدن المغربية، ساهم في انطواء الأسر على ذاتها من خلال ظهور العلاقات الاجتماعية القائمة على التباعد؛ فمن خلال تحليل طبيعة العلاقات بين الجيران، توصّل الباحث إلى أن ارتفاع عدد السُكّان وكثافتهم ينتج عنه تفكك بنية العلاقات القائمة على القرابة والجوار، وبالتالي الانتقال المتزايد نحو العزلة الذاتية لدى الأسر.

تمثل هذه الأطروحة المنطلق الذي تقوم عليه هذه الدراسة، إذ تسعى إلى اختبار مدى مصداقيتها النظرية بالنسبة للمجال المدروس. خاصة أن لهذا المجال خصوصيات تجعله يختلف عن باقي السياقات الاجتماعية التي تكون فيها العلاقات العائلية هي محور الرابط الاجتماعي، ولا سبيل إلى نسج الأفراد لعلاقات خارج إطارها.

2. الإشكالية ومنهج الدراسة

إهداءً بالمقدمات السابقة، تمّ صياغة السؤال الإشكالي لهذه الدراسة على الشكل الآتي: كيف تؤثر الوضعية الاجتماعية للزوافرية على طبيعة علاقات الجوار لديهم؟ ولتعميق البحث في هذا السؤال، سوف نطرح مجموعة من الأسئلة الفرعية يمكن اعتبارها مؤشرات للإجابة على هذا التساؤل المركزي وهي كالتالي:

- كيف يساهم غياب العلاقات الأسرية لدى الزوافرية في توطيد علاقات الجوار فيما بينهم؟
- هل يؤدي القرب المجالي الذي يفرضه السُكّان المشترك إلى تقارب اجتماعي بين الزوافرية؟
- هل يتمهى الزوافرية مع الهوية المشتركة للحيّ السكني؟

تستند هذه الدراسة منهجياً على تقنيتين أساسيتين هما: الملاحظة المباشرة والمقابلة شبه الموجهة. وتكمن أهمية التقنية الأولى في كونها تساعد الباحث على تحقيق التماهي في ميدان بحثه، وبالتالي الحصول على مزيد من المعطيات الدقيقة عن مشكلة البحث. وقد كان الهدف من توظيف هذه التقنية، هو الحصول على مجموعة من المعطيات حول مختلف أشكال المعيش اليومي عند الزوافرية، وذلك عن طريق إنجاز مونوغرافيات تصف مختلف العلاقات التي تربط بين أفراد هذه الفئة. أمّا بخصوص المقابلة شبه الموجهة، فتتماشى مع المقاربة الكيفية التي تمّ اعتمادها في هذا البحث؛ حيث إن غياب التراتبية بين الباحث ومجتمع بحثه، يساعد على الولوج إلى التفاصيل المتوخاة من المقابلة، أي أن المشارك في البحث لا يتحفظ في الإجابة على الأسئلة، ولا يلجأ إلى تقديم أجوبة جاهزة وسطحية. فالموضوع الذي نبحث فيه لا يمكن أن يكتفي بهذه المعلومات السطحية، بل يجب التعمق مع

المستجوب في تفاصيل المعيش اليومي الذي تندرج ضمنه علاقات الجوار لدى الفئة المدروسة. وهنا تكمن أهمية المقابلة شبه الموجهة بالنسبة لهذه الدراسة. تتكون العينة المستجوبة في إطار هذا البحث من 11 فرد يعيشون حياة الزوافرية ولهم تجربة طويلة في هذه الوضعية الاجتماعية، وقد تم الاعتماد على مجموعة من الخصائص السوسيو-ديموغرافية في المشاركين في البحث الميداني، وهي أن يكون ذكر عازب يقيم في السّكن المشترك الخاص بهذه الشريحة الاجتماعية. ولجعل عينة البحث تتخذ مزيداً من التنوع، قمنا بالاعتماد على «عينة كرة الثلج»، حيث تمّ استثمار العلاقة التي ربطها مع بعض المستجوبين وذلك للتعرف على أفراد آخرين، ممّا ساعد على تنوع العينة بالنظر إلى عدة متغيرات.

3. الإطار المفاهيمي

1.3. علاقات الجوار في السوسيلوجيا

لقد عرّف أحمد زكي بدوي في معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، الجوار (الجيرة) باعتباره «مجتمع صغير يتميز بمساحة محدودة ويعيش أفرادها بجوار بعضهم البعض، وترتبط بينهم علاقات شخصية مباشرة ووثيقة» (بدوي، 1978، ص 282).

من خلال قراءة هذا التعريف، واستناداً إلى بعض النصوص التي تشير بشكل أو بآخر إلى مفهوم الجوار¹، يتبيّن أن هذا المفهوم يرتبط بجانيين، أولهما يشير إلى «وحدة مجالية»، والثاني إلى «علاقة اجتماعية».

الجانب الأول: يعني أن الجوار وتحديداً «وحدة الجوار» (l'unité de voisinage) ذلك المجال الجغرافي الذي يتموضع فيه الفرد بالقرب من الآخرين، وهو أصغر جزء في المجال الحضري، ولذلك يتمّ توظيفه من طرف المهندسين والمهنيين الحضريين من أجل تحديد الوسط الذي يسكنه مجتمع محلي ما داخل المدينة (Jannière, 2008, p 4).

تتأسس وحدة الجوار على مجموعة من المبادئ يعتمدها «المعماريين» (Urbaniste). وهي بحسب «جون دو ميزونسول» وحدة جغرافية متجانسة تقوم على مساحة 12 هكتار وتتكون من 700 مسكن و3500 ساكن، وبالنسبة للكثافة فتتحدد في 60 مسكن لكل هكتار، و300 فرد لكل هكتار. ويجب أن تتوفر في هذه الوحدة مجموعة من التجهيزات كالمدرسة والملاعب الرياضي والوكالة البريدية إلخ (De Maisonseul, 1986, p 146).

يبدو هذا الجانب من المفهوم ذو أهمية بارزة، سواء في ميدان التخطيط العمراني، أو في حقل السوسيولوجيا الحضرية، إذ يشير إلى أصغر قطعة جغرافية في الوسط الحضري، التي تحتضن الأنشطة اليومية للجماعة الأهلية. وبالتالي، فإن هذه الوحدة هي مجال «المؤانسة» (sociabilité) بالنسبة لسكان المدن.

الجانب الثاني: إذا كان الجانب السابق لمفهوم الجوار يستند إلى البعد المجالي، فإن هذا الجانب يقوم على البعد الاجتماعي. إن الجوار في هذا السياق هو مجموع العلاقات الاجتماعية التي تقوم على أساس القرب، الذي يربط مجموعة من الأفراد فيما بينهم. ففي هذا الجزء لن يكون الحديث عن الجوار، بقدر ما سيكون عن «علاقات الجوار» (relations de voisinage)، أو «روابط الجوار» (liens de voisinage).

يعود التعريف السوسيولوجي الذي يعتبر الجوار علاقة اجتماعية إلى أعمال مدرسة شيكاغو، فقد كان رواد هذه المدرسة سباقين إلى دراسة الروابط الاجتماعية في المدينة، وخاصة روابط الجوار، حيث اهتموا بالعلاقة بين درجة التمذُن وطبيعة العلاقات الاجتماعية لدى الساكنة الحضرية بمدينة شيكاغو. ومن بين التعريفات التي وضعها رواد هذه مدرسة لمفهوم الجوار نجد فقرة لروبرت بارك يعرف فيها هذا المفهوم كالآتي: «يشكل القرب وعلاقات التماس القائمة على الجوار الأساس الذي تقوم عليه أبسط أشكال الارتباط التي نتعامل معها في تنظيم الحياة الحضرية. [...] وكذلك في التنظيم الاجتماعي والسياسي للمدينة، كما يشمل أصغر وحدة محلية داخل المدينة» (Park, 1984, p 89).

يتّضح من خلال هذا التعريف، أن البعد السوسيولوجي لهذا المفهوم يتحدد أولاً في «القرب» (proximité)، وثانياً «التماس» (contacts). من خلال هاتين الخاصيتين، يشكل الجوار أساس الأشكال الأولية والبسيطة للتجمع والتنظيم الحضري. يلخص هذا التعريف إذن، مجموع الخصائص السوسيولوجية التي يتميز بها الجوار باعتباره علاقة اجتماعية تتمحور حول المجتمع المحلي في المدينة².

من خلال هذا العرض الموجز، الذي حاول الإحاطة ببعض الدلالات السوسيولوجية لمفهوم الجوار، يمكن القول إن موضوع هذه الدراسة يتمحور حول البعد الاجتماعي لهذا المفهوم دون اغفال جانبه المجالي الذي سبقت الإشارة إليه. وعلى هذا الأساس، يمكن اقتراح تعريف إجرائي لمفهوم علاقات الجوار على الشكل التالي: هي كل العلاقات الاجتماعية التي تقوم بين الأفراد على أساس القرب المجالي في مكان الإقامة. يشير هذا التعريف إلى مجموعة من الخصائص، يمكن إجمالها في ثلاثة أساسية تميز هذا المفهوم: تتصل الخاصية الأولى بالبعد الاجتماعي لهذه العلاقات، والتي تندرج ضمن

الروابط الاجتماعية، ممّا يجعلها ترتبط بمفاهيم أخرى كـ «التضامن» (solidarité) و«التعايش» (coexistence) و«العلاقات البين فردية». في حين تتمحور الخاصية الثانية حول مفهوم القرب، إذ إن علاقات الجوار لا بد أن تكون بين الجيران. وبالتالي، سينصبّ الاهتمام على دراسة طبيعة الروابط بين مجموعة من الأفراد الذين يجمعهم مجال مشترك. أمّا الخاصية الثالثة والأخيرة فتقوم على مجال الإقامة، فعلاقات الجوار التي يسعى هذا البحث إلى دراستها، هي علاقات بين السّكان، أي تلك التي نجدها أساسًا في مكان الإقامة.

2.3. الزوافرية مصطلح تركيبي

إن محاولة تعريف مصطلح الزوفري، جعلتنا نصطدم بمصطلح غير واضح الدلالة، إذ يحيل إلى معاني مختلفة بالنظر إلى المرحلة التاريخية التي نبحت فيها، أو إلى السياق الاجتماعي الذي يُداول فيه، فالزوفري في فرنسا ليس له نفس المعنى في الجزائر أو المغرب، كما أن معنى الزوفري في المعمل ليس نفسه في الحيّ إلخ. وهذا ما يجعل عملية التعريف تتطلب الكثير من التريث والحذر المعرفي.

يعود الجذر اللغوي لمصطلح زوفري (zoufri) إلى كلمة (ouvrier) في اللغة الفرنسية التي تحولت إلى (z-ouvrier)، أو (Ez-zouvrier). وقد تمّ هذا الانزلاق الدلالي في دول شمال أفريقيا، خاصة في تونس، والجزائر، والمغرب. ويمكن أن نلخص مسار التحول الدلالي لهذا المصطلح في ثلاثة مراحل أساسية، يشير فيها هذا اللفظ إلى معاني مختلفة.

المرحلة الأولى: كان الزوفري في هذه المرحلة يشير إلى العامل، الذي ارتبط ببروز المجتمع الصناعي، حيث ظهرت الطبقة العاملة في أوروبا نهاية القرن الثامن عشر، وارتبطت بالثورة الصناعية، خاصة في العالم الغربي (Rioux, 1971, pp 164-165). فقد أدت هذه الثورة إلى ظهور الأوراش الصناعية الكبرى التي صارت بحاجة إلى قوة عاملة تمّ استقطابها من القرى. ممّا يبيّن أن الصناعة ارتبطت في هذه المرحلة بالهجرة، خاصة الهجرة القروية. لا يختلف الأمر كثيرًا في شمال أفريقيا، حيث توجد نفس السيورة، فبدخول المستعمر إلى هذه المنطقة، تمّ إنشاء وتطوير المصانع والمناجم، ممّا تتطلب يدًا عاملة كبيرة جاءت بالأساس من البوادي، ومتجهة نحو المدن (Benzakour, 1978, p 83)، ممّا ساهم بشكل مباشر في تشكيل طبقة عاملة حضرية تسكن أساسًا في أحياء الصفيح. وقد كانت تتكون من الزوافرية في البداية.

المرحلة الثانية: إذا كان مصطلح الزوفري يشير في المرحلة الأولى من استعماله إلى العامل، فقد تطور ليعني العامل غير المؤهل، الذي ليست له وضعية مهنية قارة (Adam, 1968, p 856). وقد

استعمله «روبير مونطاني» للإشارة إلى العامل العاطل (Montagne, 2016). في هذه المرحلة بدأ مصطلح الزوافرية يتخذ حمولته السلبية، فكما يتبين في تعريف «أندري آدم» لم يعد الزوافري يعني فقط العامل، بل يشير كذلك إلى العامل غير المؤهل.

المرحلة الثالثة: أصبح مصطلح الزوافري في هذه المرحلة، يعني العامل المهاجر. وارتبط بالموجات الهجرية الأولى نحو أوروبا. يظهر هذا الاستخدام بشكل خاص في أعمال السوسيولوجي الجزائري أحمد بوبكر، حيث يوظفه في مختلف كتاباته، فهو يتحدث عن «شخصية الزوافري» (figure du zoufri)، ويعني به صورة الأب المهاجر (Boubeker, 2003, 165). أي الجيل الأول من المهاجرين الذين توجهوا إلى أوروبا وتحديداً إلى فرنسا باعتبارهم يدأ عاملة في قطاع البناء. إن الخاصية التي تميز هذا الجيل من المهاجرين، هي عدم الاندماج في المجتمع الفرنسي، ممّا جعل هذا الأخير ينظر إليهم كقوة عاملة فحسب، وليس ككائنات إنسانية (Boubeker, 2003, 166).

بعد هذا التشخيص السريع لمختلف مراحل تطور المصطلح والتعريفات التي عرفها خلال هذا المسار، يمكن القول إن التعريف الذي اقترحه عبد المجيد عريف هو الأقرب إلى ما نغنيه بالزوافري في الوقت الراهن لأنه تعريف جامع لكل التحديدات السابقة. فقد أكد بأن الزوافري هو «تعريب للكلمة عامل، وإذا كان يشير إلى العمل، فإنه يشير أيضاً إلى حالة العزوبة التي يعيشها العامل، سواء كانت هذه العزوبة حقيقية أو سوسيولوجية» (Arrif, 2017, p 10). وبالتالي فلم يعد يقتصر على المعنى الاصطلاحي الذي نستشفه من كلمة (ouvrier)، بل صار يشير إلى العمل، وإلى العزوبة في نفس الوقت، أو إلى العامل العازب.

تأسيساً على ما سبق، يمكن القول إن الزوافري في هذا البحث يعني ذلك الفرد العازب الذي يعيش في المدينة بعيداً عن أسرته، ويسكن في حجرة سواء بشكل فردي أو بشكل مشترك (colocation). يقوم هذا التعريف على ثلاثة خصائص مركزية، يمكن من خلالها تمييز من هو الزوافري عن غيره. تتلخص الخاصية الأولى في اعتبار الزوافري شخص عازب. فالعزوبة هنا إما أن تكون حقيقية أو سوسيولوجية، كما بين عبد المجيد عاريف. تعني العزوبة الحقيقية أن الشاب غير متزوج، أمّا العزوبة السوسيولوجية فتعني أن الفرد متزوج ولكنه لا يعيش مع زوجته. وتتعلق الخاصية الثانية بالسكن بعيداً عن الأسرة، إذ يمكن أن يكون الفرد عازباً ولكن لمّا يسكن مع أسرته، فهو لا يصير زوافري بالمعنى الذي يحدده التعريف السابق. وبالتالي، فالزوافري هو العازب الذي لا يقطن مع أسرته. ترتبط الخاصية الثالثة بسابقتها، فإذا كان الزوافري لا يسكن مع أسرته، فإنه يقطن في نمط خاص من السكن هو السكن المشترك، سواء كان حجرة، أو شقة مشتركة والتي تنتمي إلى نوع من المنازل ويسمى في الدارجة

المغربية بـ «دار الزوافرية». تشكل هذه الخاصية المحور الذي يقوم عليه هذا البحث؛ حيث إنها تحدد الزوافرية بالنظر إلى عامل المجال، وهذا ما يجعل كلمة زوفري ترجمة سياقية للكلمة الفرنسية (colocataire).

4. علاقات الجوار لدى الزوافرية: ثلاثة مستويات أساسية

بناءً على مجموعة من الملاحظات الميدانية، تمّ التوصل إلى أن الجار عند الزوافرية، ليس له مدلول واحد، أي أنه لا ينحصر في شكل محدد من العلاقات، ويتضح ذلك في كون الزوفري عندما يتحدث عن الجار، فإنه يضيف إليه وصفاً آخر، وذلك لتدقيق الجار الذي ينوي الإشارة إليه، كأن يقول مثلاً: «الجار في الشقة»، أو «الجار في المنزل». من خلال تحليل هذه الأوصاف، تبين أن الجار عند الزوافرية يتفرع إلى ثلاثة مستويات أو دوائر، ولكل مستوى منها طبيعة من العلاقات تختلف عن المستويات الأخرى، وهي الشقة، المنزل والحي.

ينطلق هذا التمييز من عنصر موضوعي هو المجال، فضمن هذا الأخير تتمظهر المستويات الثلاثة لعلاقات الجوار، وذلك فيما يشبه «سلم العلاقات» (Echelle de relation)، ويختلف كل مستوى عن المستويات الأخرى انطلاقاً من عاملي «القرب» (proximité) و«البعد» (distance)؛ حيث يلعب هذين العاملين دوراً مركزياً في تحديد الروابط، كما يتبين في التعاريف السابقة لمفهوم الجوار؛ إذ يشكل القرب أحد أهم الخصائص التي تميز هذا المفهوم. لكن تجدر الإشارة إلى أن القرب هنا لا يعني فقط القرب المجالي، الذي يفرضه نمط السكن المشترك، بل يعني أيضاً القرب الاجتماعي الذي يتجسد في مجموعة من المتغيرات كالجنس والسن والحالة العائلية والنشاط الاقتصادي إلخ. فكل هذه الخصائص تمكّن من ملاحظة القرب الاجتماعي، إلى جانب القرب المجالي الذي يشكل معطى ذو طبيعة موضوعية. وبالتالي، فتوظيفنا لهذا المفهوم ينطلق من مقارنة كلٍّ من الباحثين «جون كلود شامبوردون» و«مادلين لومير» لهذا المفهوم، أي باعتباره يشير إلى التجانس (homogène)، في حين يشير البعد إلى عدم التجانس (Chamboredon et Lemaire, 1970). ولفهم عمق هذا التمييز سيتمّ تحليل كل مستوى على حدة.

1.4. علاقات الجوار في الشقة

يقتصر الجوار هنا في دائرة الشقة؛ إذ إن كل المساكن التي تمّت معاينتها هي منازل تتكون من مجموعة من الشقق، وكل شقة تنقسم بدورها إلى مجموعة من الحجرات، وفي كل واحدة من هذه الحجرات تتواجد وحدة بيتية (ménage)، أي مجموعة من الزوافرية يتشاركون في اكتراء إحدى هذه

الغرف وينتظمون فيما يسمى بـ ((العشرة)³. فكل شقة تضم مجموعة من الوحدات البيئية المستقلة، ويمكن أن تتراوح من حيث العدد، ما بين غرفتين إلى أربعة غرف في كل شقة.

في هذا المستوى يعتبر الجار كل من يقطن في الحجرة المجاورة داخل نفس الشقة. ففي هذا النمط من السكن، يتضح التجانس الاجتماعي الذي سبقت الإشارة إليه، في مجموعة من المؤشرات: كالجنس؛ السن؛ الحالة العائلية؛ النشاط المهني إلخ. أي أن المحددات السوسيو-ديموغرافية لهذه الفئة تتميز بالتقارب والتجانس.

انطلقاً من مفهوم «علامات الترابط» (les signes du lien)، الذي وضعه «ارفنج غوفمان» في سياق تحليله للعرض المشهدي في الحياة اليومية بالمجال العام، حيث أكد على وجود جملة من العلامات التي تؤثر إلى شكل العلاقات بين الأفراد (Goffman, 1973, pp 186-187). ويمكن القول إن علامات الترابط بين الزوافرية تتجلى في مختلف أشكال التبادل والمشاركة المختلفة فيما بينهم.

فالعلاقات التبادل بين الجيران في نفس الشقة، تشمل مجموعة من الموضوعات والخدمات، كالأواني المستعملة في الطبي والغسيل وبعض التجهيزات والأفرشة إلخ. فالوضعية الاجتماعية للزوافري تجعله مجبراً على التبادل، فهو بطبيعته لا يملك الكثير من الأشياء في محل إقامته، فمعداته تقتصر على بعض الضروريات وغالباً ما تكون مخصصة للطبي والغسيل. فعلى سبيل المثال يقتصر الزوافري على إبريق الشاي، وبعض الكؤوس الزجاجية، ثم قدر للطبي (كاميلة) وصحن من خزف. يعود قلة هذه الأدوات عند الزوافري، إلى كونه يعيش في وضعية اجتماعية مؤقتة⁴ (provisoire)، فهو دائم التنقل؛ حيث لا يستقر في نفس المكان لمدة طويلة، فهو دائم البحث عن مكان أفضل، وحي أفضل، ومهنة أفضل، وزملاء أقاضل.

إن هذه الخاصية التي يتميز بها الزوافرية، تجعلهم لا يملكون كل ما يحتاجونه في حياتهم اليومية، وبالتالي فهم مضطرون للتبادل مما يجعلهم يحققون نوع من التكامل مع جيرانهم من نفس الفئة، فما لا يملكه أحدهم في الحجرة (أ) قد يملكه جاره في الحجرة (ب)، وما لا يجده الزوافري في نطاق شقته، قد يجده عند جاره في الشقة المجاورة، وهذا ما يؤكد أحد المستجوبين إذ يقول «إنَّ التبادل ضروري أينما كنت، فما إن يتم التعارف بين الجيران، فلا يمكنك حينئذ الاستغناء عنه، وذلك لأنك قد تملك بعض الأشياء وتنقصك أشياء أخرى [...] لذلك يجب عليك أن تقوم بعملية التبادل مع الجيران.

ومن الممكن أن يشمل هذا التبادل مجموعة من الخدمات كالنقود والأواني المنزلية وفي البعض الحالات الملابس» (رشيد، مقابلة شخصية، 2019).

أمّا بالنسبة للمشاركة، فنجد هؤلاء الشباب يتشاركون في مجموعة من الأنشطة، سواء داخل المسكن، أو خارجه. وهنا، تتبين أهمية الطعام باعتباره يؤسس جماعة/العشيرة التي ترادف الوحدة البيئية عند الزوافرية. إن قيام هذه المؤسسة، واستمرارها يقوم على مبدأ المناوبة (تؤلاً/الثوبة)، سواء في إعداد الطعام أو في تنظيف الأرضية إلخ، فكل فرد يتكلف بإعداد الأكل في اليوم المخصص له، وعادة ما تكون الوجبة التي يتم مشاركتها هي وجبة العشاء، حيث إن الزوافرية يشتغلون طوال اليوم، ولا يتناولون الطعام في البيت إلا في المساء، أو في أيام العطل كأيام الأحد على سبيل المثال. إن الملاحظ في هذا الجانب، هو كون الوحدة البيئية، بنية منظمة على أساس العشيرة التي تقوم عن طريق المناوبة في أداء الأدوار اليومية.

يمكن إدراج مشاركة الأطباق المناسبة التي لا تتردد بشكل يومي عند الزوافرية، ضمن علاقات «التعارف» (reconnaissance)، خاصة بالنظر إلى التقسيم الذي قام به «جورج هيربرت ميد» بين الأشكال الثلاثة للتعرف، الذي استقاه من التقسيم الذي أجراه «فريدريك هيغل»، فهناك تعارف على أساس: العائلة؛ ثم المجتمع؛ ثم الدولة. لكن ميد لم يقتصر في تعريفه للتعرف الذي يقوم على أساس العائلة، في مجرد الانتماء القربي، بل اعتبر هذا النوع من التعرف، يحيل إلى جميع الروابط الأولية التي يتم نسجها مع الآخر باعتباره فرداً ملموساً (Autant, 2010, p 589)، أي أن الفرد عندما يتشارك مع الآخر فإنه يقوم بذلك في إطار علاقة عائلية، بالمعنى الذي يقرره ميد، والذي يتأسس على مبدأ التعرف بين الأفراد. ومن هنا، فإن الأفراد الذي يتشارك مع أحدهم (الزوافري الذي يتشارك الطعام مع جاره في الشقة على سبيل المثال) يسعى إلى التعرف على ذلك الفرد الذي يُشركه. ومن جهته، فإن هذا الأخير ينظر هو الآخر إلى عملية المشاركة تلك باعتبارها دليلاً قاطعاً على أنه معروف في ذلك الوسط الاجتماعي الذي يُشرك فيه، وهذا المعنى تمثل الوجبة العائلية طقساً أساسياً لتشكل الجماعة المنزلية (Kaufmann, 2006, p 115)، التي تعمل على توطيد العلاقات بين الزوافرية. فمشاركة الطعام عند الزوافرية إذن، تجعل «المثير في قراء الطعام [...] أنه عنصر مؤسس للاجتماع منذ البدء، بالرغم من التحولات التي تعرفها المجتمعات الإنسانية من بروز الفردي وتراجع الجمعي، فإن الطعام يستمر مؤسساً للجماعي، ولو في مستويات موسمية وطفوسية» (العطري، 2016، ص 28).

تعتبر علاقات التبادل والمشاركة بين الجيران عند الزوافرية، تعويضاً لغياب العائلة في هذه الوضعية الاجتماعية، وهذا ما يؤدي إلى تقوية روابط الجوار. أي أن غياب العائلة في السياق الاجتماعي

لهذه الفئة يفرض نسج العلاقات مع الجيران، وتتجلى هذه العلاقات في التبادل والمشاركة كما سبقت الإشارة. إن هذه النتيجة تؤكد القاعدة التي تقول إن الجوار يعوض غياب العائلة والعلاقات الأبوية بشكل عام، حيث يقول «أندريه فوغان» في هذا الصدد أن علاقات الجوار يمكن أن تعوض النقص الذي يسببه غياب العائلة كما يمكن أن تنسج علاقات تعايش بين الجيران الذين لا يستقرون في نفس المكان لمدة طويلة (Fortin, Delage et Dufour, 1985, p 222). كما يذهب «أندريه فييل» إلى نفس النتيجة مؤكداً أن الجوار يعوض غياب العائلة (Vieille, 1954, p 140). ومن هنا، فإن الزوافرية ينسجون روابط اجتماعية راسخة مع جيرانهم، خاصة أن السمة الأساسية لهذه الوضعية هي غياب العلاقات القرابية والعائلية، ممّا يضطر الزوافري إلى الاعتماد على علاقات الجوار بدل الأشكال الأخرى من العلاقات الأولية.

2.4. علاقات الجوار في العمارات السكنية

في هذا المستوى تتسع دائرة الجوار لتشمل كل الشقق التي تنتهي إلى نفس المنزل، ونجد هذا النوع من العلاقات بشكل خاص في المنازل التي تتكون من عدة طوابق. في هذه الدائرة المجالية يصبح المجال المشترك هو الدرج، فهو الذي يملك السكان من ولوج إحدى الطوابق، ممّا يجعله «مكان الالتقاء» (lieu de rencontre) الذي يجتمع فيه السكان. فيما يخص القرب الاجتماعي في هذا المستوى، فهناك اختلاف من منزل إلى آخر، إذ ليس هناك نموذج واحد لمنزل الزوافرية بل هناك نماذج متعددة.

إن الحديث عن المنزل يستدعي التطرق إلى خاصية أساسية تتعلق بطبيعة السكن الجماعي، فهذا النمط من السكن يرتبط بالنمو الحضري. فالتمدد السريع أدى إلى نمو ديمغرافي كبير، حيث أصبح الحديث عن المدن المليونية التي ساهمت في بروز أزمة السكن، وأصبحت هذه الأخيرة تشكل عائقاً أمام نمو المدن. وتتجلى هذه الأزمة في المعادلة التي تجمع بين النمو الديمغرافي ومحدودية الأراضي القابلة للتعمير.

لقد جعلت هذه الأزمة المعمارين يفكرون في إيجاد حل هندسي لتسوية هذه الأزمة، وهو الانتقال من البناء الأفقي إلى البناء العمودي. فهذا النمط من المعمار أصبح خاصية مميزة للمدن الحديثة، ويعتبر «لو كوغيسي» من بين أبرز منظري هذا النمط من السكن في السياق الفرنسي، فقد طرح السكن العمودي كحل للمشاكل التي تعرفها المدن الحديثة، واقترح الانتقال من السكن الفردي إلى الجماعي. فهذا الأخير يتكون من الشقق والطوابق، تمكن من توفير المساحة وتوظيفها في بناء المنشآت

المخصصة للعيش المشترك كالشوارع والحدائق العمومية والمرافق الرياضية إلخ (Le Corbusier, 1994). وألح كذلك على تقليص مكونات الشقة، وبالتالي توفير المجال عن طريق تقلص مساحة الشقق (Le Corbusier, 1948, p 433).

يؤدي السكن المشترك إلى بروز العلاقات الاجتماعية المفروضة (imposé) التي يصبح فيها المجال المشترك هو المحدد الأساسي لهذه الروابط⁵. والسؤال المطروح في هذا السياق، هو كيف تتجلى هذه العلاقات المفروضة بين الزوافرية باعتبارهم يقطنون هذا النمط من السكن المشترك والجماعي؟

تشكل العمارات (السكن العمودي)، أو دار الزوافرية، المكان الذي يلتقي فيه الزوافرية فيما بينهم، ويتعرفون على بعضهم البعض، ذلك أن هذا النوع من السكن غالباً ما يكون مخصصاً لهذه الفئة دون غيرها. ففي كل الحالات التي تمت ملاحظتها، لا يوجد أي شكل من «الاختلاط» (mixité)، بين هذه الفئة الاجتماعية وفئات أخرى. هذا ما يجعل السكن العمودي يقوي فرص الالتقاء بين الزوافرية، ومن ثم تكوين روابط الجوار تتسم بدرجة من التماسك، الذي لا يمكن حصره في علاقات عابرة ومؤقتة.

إن ما يجعل العمارات السكنية مجالات للالتقاء هو مرفولوجيتها، فالعمارات التي تضم مجموعة من الطوابق، لا بد أن تتوفر على درج يجمع بين كل هذه الطوابق، وعن طريق هذا الدرج يتم الدخول والخروج من الشقة إلى الشارع العام، ويمكن اعتبار الدرج كـ «شارع داخلي» (rue intérieure) كما تؤكد «فرونسواز نفيز بوشانين» (Bouchanine, 1990, p 139). وبالتالي، فإن هذه المرفولوجيا، تعتبر الركيزة المادية التي يتأسس عليها الالتقاء بين سكان هذه العمارات.

إذا كان السكن العمودي مجالاً للالتقاء بين الزوافرية، فهو كذلك مجال للنزاع فيما بينهم. ويمكن اعتبار النزاع علاقة اجتماعية بين الأفراد، حيث إنها تمكّن من إجراء محادثة بين المتخاصمين والتفاوض، وبالتالي تطوير الروابط بينهم (Picard et Marc, 2008, p 114). كما يمكن أن يؤدي إلى انقطاعها بشكل نهائي بين المتخاصمين.

لا بد من التأكيد أن النزاع لا يتخذ طابعاً سلبياً في روابط الجوار، بل له أهمية في تشكيلها، حيث يمكن من تجاوز تلك الحدود التي يضعها الأفراد مع جيرانهم (Michel, Bassand et Lehmann, 1982, p 64). كما أن النزاع باعتباره تفاعل بين الأفراد، يساهم في تشكيل تكتلات بين الجيران من أجل مواجهة خصم مشترك، ممّا يسمح بنشوء روابط التعارف والتلاقي فيما بينهم. وفي هذا السياق يؤكد عبد المجيد عريف على هذه الخاصية التي تميز علاقات النزاع بين الجيران، حيث ينفي

كونها مجرد تفكك، أو اختلال في نظام العلاقات الاجتماعية، بل يمكن أن نعتبرها قوة أخلاقية ونوع من الاندماج الحيوي في شبكة الجوار خاصة من خلال تدخل الأقارب، ممّا يجعل الصراع في هذه الحالة فرصة للتعارف مع الآخرين.

وفق هذين المبدئين (الالتقاء والنزاع)، يشكل المجال المشترك الإطار المادي الذي تنشأ فيه علاقات الجوار بين الزوافرية، وهو ما يبيّن أن رابطة الجوار في السّكن العمودي، تخضع لعوامل خارجية تجعلها تتشكل خارج رغبة الأفراد، بل يمكن القول إن هذه العلاقات تتسم بـ «الجبرية» أي أنها مفروضة عن طريق العيش المشترك في مجال مشترك.

إن العلاقة بين المجال والمجتمع، وتحديدًا بين المجال المشترك (السّكن الجماعي) والعلاقات الاجتماعية، تبيّن الكيفية التي تتشكل عن طريقها الروابط الاجتماعية في مجال دون آخر، وكذلك الفرق بين الروابط الاجتماعية في المجالات المختلفة. هذا الفرق يمكّن من فهم عمق هذه العلاقة؛ حيث إن العلاقات داخل الشّقة تختلف كلياً عن العلاقات في العمارات السّكنية، ممّا يجعل المجال فاعلاً أساسياً في بناء الروابط الاجتماعية، وبالتالي الانتقال بالعلاقة بين الأفراد من التعارف البسيط الذي يقوم على تبادل التحية، إلى تبادل المحادثات (على مستوى العمارات)، ثم إلى تبادل الزيارات والأشياء (على مستوى الشّقة).

يعتبر السّكن العمودي إذن، مجالاً تتشكل فيه مجموعة من الروابط الاجتماعية، فقد تبيّن ممّا سبق أن هذا المجال يعزز فرص الالتقاء، سواء من خلال مورفولوجيا هذه العمارات، أو من خلال علاقات النزاع التي قد تنتج عن مجموعة من السلوكات التي تصدر من الجيران في الطابق الآخر. وهذا ما يجعل المجال عاملاً أساسياً في تشكيل جماعة اجتماعية، يتعارف أعضاؤها ويتنازعون، وذلك في ظل علاقة اجتماعية تتمحور حول السّكن العمودي ومجالاته المشتركة.

3.4. علاقات الجوار في الحيّ السّكني

يعتبر الحيّ الحلقة الأوسع في علاقات الجوار لدى الزوافرية؛ حيث يصبح فيه الجار كل من ينتمي إلى «الحيّ السّكني» (quartier résidentiel)، وليس فقط الذي يسكن في نفس الشّقة، أو المنزل. ويشكل «البعد» (distance) في جانبه المجالي والاجتماعي، الخاصية الأساسية التي تميز دائرة الحيّ: فالأول يتجلى في كون المنازل والغرف متباعدة، إذ تفصل بينها الطرق والأزقة، ممّا يجعلها أبعد بالمقارنة مع الحجرات التي تشكل مجتمعة شقة، أو منزل واحد. أمّا فيما يخص البعد الاجتماعي فيتجلى في كون هذا المجال الواسع نسبياً، يتسم بالتنوع وعدم التجانس الاجتماعيين، سواء من حيث السن أو

الجنس أو مستوى العيش. فالحي الذي أنجز فيه البحث الميداني لهذه الدراسة، يعتبر مجالاً للاختلاط الاجتماعي خاصة بالنظر إلى المتغيرات الأنفة الذكر. وهذا ما يجعل الحديث عن البعد الاجتماعي يتخذ أهمية إجرائية بالنسبة لهذا البحث.

يذكر هذا التقسيم، الذي يتخذ من القرب عاملاً للتمييز بين مستويات مختلفة من العلاقات الاجتماعية، بالتقسيم الذي أجراه «إدوارد هال» بين: «المسافة الحميمة» و«المسافة الشخصية» و«المسافة الاجتماعية» وأخيراً «المسافة العمومية». تكمن أهمية هذا التقسيم في كونه يتأسس على عامل البعد في تحديد هذه المسافات المختلفة، فعلى الرغم أنه تناول المسافة بين الأفراد في المجال «غير المهيكل» (espace informel)، إلا أنه جعل طبيعة العلاقة بين الأفراد تختلف من مستوى إلى آخر (Hall, 1971, p 144)، وهذا ما يؤيد التقسيم السابق فيما يخص رابطة الجوار، فعلى الرغم من أن هذه الأخيرة تختلف كلياً عن موضوع إدوارد هال، إلا أنها تتداخل مع تحليله في المجال غير المهيكل؛ حيث إن هذا الأخير يحيط بالفرد، ويتحكم في تحديد علاقته بالآخرين، ونفس الشيء نجده في مستويات الجوار، فكل واحد منها يحدد شكلاً مختلفاً من الروابط بين الجيران.

تتخذ العلاقات الاجتماعية داخل الحي أشكالاً متنوعة، بالنظر إلى التنوع وعدم التجانس الذي يكتسبه هذا الوسط، خاصة فيما يتعلق بمستوى عيش الساكنة، وفئاتهم العمرية، ثم وضعياتهم العائلية إلخ. فكل هذه المتغيرات تساهم في جعل الحي مجالاً للتباينات السوسيولوجية والثقافية. وهذا ما يجعل طبيعة الروابط داخله تتخذ أشكالاً متنوعة تبعاً للخصائص الاجتماعية للأفراد، فقد نجد علاقات متماسكة تتميز بتبادل الزيارات، وأخرى ضعيفة تنحصر في تبادل التحية، ثم هناك العلاقات العابرة والمجهولة (anonyme) بتعبير «إرفن غوفمان». وبالتالي، فالمسافة الاجتماعية والمجالية تجعل الروابط الاجتماعية داخل الحي تختلف عن مثيلتها في الشقة والعمارات السكنية.

إذا كانت علاقات الجوار في الشقة والسكن العمودي تتميز بكونها مفروضة (relations imposées)، وذلك بفعل العوامل التي سبقت معالجتها كغياب الأسرة والمجال المشترك بين الزوافرية، فإن الحي السكني يتسم بسيادة العلاقات المجهولة (anonymat)، خاصة بالنسبة للزوافرية الذين يقطنون بشكل مؤقت، وليس لهم انتماء تاريخي إلى هذا المجال الاجتماعي، بل يقطنون فقط باعتبارهم وافدين على هذا الفضاء. من هنا، فإن العلاقات التي ينسجها الزوافرية في هذا المجال تقوم على مبدأ الانتقاء، إذ إن الزوافري يعمل على تشكيل شبكة من العلاقات الاجتماعية مع جيرانه في الحي، ولكن ليس مع كل جيرانه بل مع بعضهم فقط، ولذلك يتم انتقاء هذا البعض عن طريق مجموعة

من المعايير، كالتقارب اللغوي أو الانتماء إلى نفس الوضعية الاجتماعية، أو على أساس الاهتمامات المشتركة وعلاقات العمل إلخ.

من خلال مبدأ الانتقاء، يظهر أن الزوافرية ينسجون روابط اجتماعية في نطاق الحيّ، فالعلاقات الاجتماعية في هذا المستوى تكون على شكل شبكة، سواء كانت اللغة هي التي تجمع عناصر هذه الشبكة، أو الظروف المعيشية المتشابهة، أو المهنة المشتركة إلخ، فإن القاسم المشترك بينهم هو الانتماء للزوافرية، ممّا يجعلهم يعيشون ضمن وضعية اجتماعية متجانسة نسبيًا بالمقارنة مع بقية سكان الحيّ. ويشكل هذا التجانس أساس الروابط، حيث إنه مؤشر على القرب الاجتماعي. لكن هذا لا يعني أن كل العلاقات الاجتماعية التي ينسجها الزوافرية في الحيّ تقوم على هذا المؤشر، بل هناك شكل آخر من العلاقات يقوم على البعد الاجتماعي، وهي علاقات الصراع التي تجمع بين الزوافرية باعتبارهم فئة متجانسة مع بقية سكان الحيّ.

تتمظهر علاقات الصراع بين الزوافرية وسكان الحيّ في مسألة الضبط الاجتماعي، خاصة الذي يمارسه «السُّكان الأصليون» في الحيّ على الزوافرية. ويمكن ملاحظة هذه العلاقة القائمة على الضبط، في تجليين أساسيين هما «المراقبة» (contrôle) و«الوصم» (stigmatisation).

هنا لابد من الإشارة إلى نقطة أساسية، تتعلق بكون الزوافرية يشكلون فئة «غريبة» (Outsiders) في نظر المجتمع، حيث لا يحترمون المعيار الاجتماعي. فيحسب «هوارد بيكر» فإن الغرباء هم كذلك لأنهم لا يخضعون «للمعايير الاجتماعية» (les normes sociales). فهذه الأخيرة هي التي تفصل بين ما هو «خير» وما هو «شر» بالنسبة للمجتمع، وعندما يخترق فرد ما هذا المعيار، يصبح غريبًا عن الجماعة التي ينتمي إليها (Becker, 1985, p 25). إن المعيار الاجتماعي الذي تقوم هذه الفئة الاجتماعية باختراقه هو «الزواج»، فإذا تم الانطلاق من تعريف الزوافرية بكونهم ينتمون أساسًا إلى وضعية العزوبة، فإنهم بالتالي خارج النموذج المعياري الاجتماعي. فالعزوبة إضافة إلى كونها تناقض قيمة العائلة، فإنها تؤثر على الفوضى واللامعيارية خاصة فيما يتعلق بالحياة الجنسية لهؤلاء، فهي دليل على وجود ممارسات جنسية خارج مؤسسة الزواج (Elguedri, 2017, pp 37-38).

هكذا، فإن علاقات الجوار في مستوى الحيّ السُّكاني، تصبح حاضرة في الحياة الخاصة للأفراد، وذلك لكونها تتأسس على مراقبة سلوك الأفراد (Andezian et Streiff-Fenart, 1983, p 252). لضبطه وفق المعايير الاجتماعية. ممّا يجعل هذه العلاقات تتخذ طابعًا خاصًا بالنسبة

للزوافرية، يتجلى في تفادي نسج أي شكل من الروابط مع سكان الحيّ وعدم التعرّف عليهم، إلا بعد مدة طويلة من الإقامة، وهذا ما أشار إليه محمد وزيف عندما كتب قائلاً إنه «في الأحياء الشعبية، يتمّ انهام جميع الزوافرية حتى يثبتوا حسن سلوكهم أمام سكان الحيّ» (Wazif, 2011, p 331).

يشكل الوصم هو الآخر آلية للضبط الاجتماعي، والوصم هنا لا يحمل معنى في ذاته بل يشترط وجود علاقة وجهًا لوجه بين طرفين على الأقل (Arrif, 1992, 153). أي أن الوصمة ترتبط بالسياق الاجتماعي الذي تُطلق فيه، وذلك لكونها تعبر عن رهان اجتماعي من أجل تقويض فئة اجتماعية مخصصة، وبالتالي جعلها متميزة عن باقي الفئات الأخرى. يتعرض الزوافرية داخل الحيّ السّكني، على الأقل إلى نوعين من الوصم، يرتبط الأول بثنائية «نحن» و «هم»؛ التي تتجلى في ثنائية «الغريب» و «أبناء الحيّ»، وذلك من أجل التمييز بين المجموعتين غير المتجانستين. فالأولى تتشكل من الزوافرية الذين لا يحترمون المعيار الاجتماعي للحيّ، في حين تتكون الأخرى من سكان الحيّ، المالكين للبيوتهم، الذين لهم تاريخ في الحيّ يمكّنهم من الانتماء إلى الهوية المحلية للحيّ.

أمّا النوع الثاني من الوصم الذي يرتبط بالمجال، فنجد له لصيق بالبيوت التي تسكنها الفئة المدروسة، حيث تُنعت هذه الأخيرة بـ «دور الزوافرية»، فمجرد هذه التسمية تعبر عن وجود وصمة مرتبط بالمسكن باعتباره إطار مادي موجود في المجال. وهذا ما أكدّه محمد وزيف حيث استنتج هو الآخر بأن دار الزوافرية هو مجال موصوم من طرف سكان الحيّ، ففي نظره تشكل «دار الزوافرية معلمة داخل الحيّ، وبشكل قاطن محط ارتياب السّكان. ترتبط صورة هذا النوع من المنازل بالباب المفتوح طوال الوقت، وكثرة الاوساخ والفضلات، ثم درجه المتسخ الذي يعاني من سوء التنظيف» (Wazif, 2011, p 331).

تقوم العلاقة بين الزوافرية وجيرانهم في الحيّ على مبدأ الضبط الاجتماعي، فالعائلات تحاول ضبط سلوك الزوافرية، وتقويضه وفق معايير اجتماعية محددة. يتمّ هذا الضبط إمّا عن طريق المراقبة، التي تجعل الزوافري محط توجس السّكان، وتحديدًا فيما يخص ممارساته الجنسية التي لا تسائر معايير الأسر القاطنة في الحيّ. كما يتمّ عن طريق الوصم، حيث يعمل هذا الأخير على تمييز الزوافرية عن بقية السّكان. فالزوافري باعتباره عنصرًا أجنبيًا عن المجتمع المحلي للحيّ السّكني، يصير موضوعًا للوصم، فهذا الأخير يسعى إلى ضبط سلوك الزوافري ليتوافق مع معايير المجتمع.

خاتمة

لقد كان الرهان الأساسي لهذه الدراسة هو محاولة فهم طبيعة علاقات الجوار الزوافية، وذلك بالنظر إلى كون هذه الوضعية تتميز بمجموعة من الخصائص تجعلها مختلفة عن الوضعيات الاجتماعية الأخرى. وقد تمّ الانطلاق من الدراسات السوسيولوجية التي تقوم على الأطروحة القائلة إن التمدّن يؤدي إلى تلاشي علاقات الجوار، وقد حاولنا اختبار هذه الأطروحة عند الفئة المدروسة.

إن تحليل المصطلحين اللذين يركز عليهما هذا البحث، كشف بداية أن علاقات الجوار، تنقسم إلى الجوار الذي يشير إلى وحدة مجالية التي تُستخدم في التخطيط العمراني، وعلاقات الجوار التي تتميز ببعدها السوسيولوجي. أمّا بخصوص مصطلح الزوافية، فتبيّن أنه خضع للتحوّل دلالي؛ حيث انتقل من معنى العامل (ouvrier)، إلى معنى العازب (célibataire)، ممّا يجعله يستدعي الكثير من التريث أثناء استعماله في البحث العلمي.

يعرّف الزوافية الجوار بالنظر إلى عامل القرب المجالي، ولذلك تمّ استنتاج أن الجوار في هذه الوضعية ينقسم إلى ثلاثة مستويات أساسية، يمكن اعتبارها نماذج مثالية لعلاقات الجوار لدى الزوافرية: فالجوار في المستوى الأول ينحصر في الشقة، ويشمل الثاني العمارات السكنية، أمّا الثالث فيضم فضاء الحيّ ككل. انطلاقاً من هذا التقسيم يصير من الصعب وصف علاقات الجوار لدى الزوافرية بأنها ضعيفة أو غير موجودة؛ خاصة أننا لم نعد نتحدث عن علاقات الجوار بصيغة الجمع، ففي كل واحد من هذه المستويات الثلاثة التي أشرنا إليها، توجد روابط اجتماعية مختلفة عن المستويات الأخرى. لكن لا بد من الإشارة إلى أن هذه التصنيفات الثلاثة لا توجد بشكل واضح في الواقع الملموس، بل إنها تتخذ طابعاً نظرياً، أي أنها نماذج مثالية (types idéales). فالعلاقات الاجتماعية في المعيش اليومي تتسم بالتداخل والتنوع ولا تنقسم إلى دوائر متباينة كالتّي تقترحها هذه الدراسة. ولكن هذا التصنيف يسهل عملية فهم التنوع الذي تتميز به علاقات الجوار لدى الزوافرية.

كما يُمكن هذا التصنيف من مناقشة الدراسات السوسيولوجية التي تذهب إلى تراجع علاقات الجوار في المجال الحضري. وكنموذج لهذه الدراسات سوف نقتصر على مقال «القرب المجالي والبعاد الاجتماعي»، الذي ركّز فيه كاتباه على مفهومي القرب المجالي والمسافة الاجتماعية كبعدين متناقضين للعلاقات الاجتماعية في «التجمعات الكبرى للسكن الاجتماعي» بفرنسا، فإذا كان الباحثان يعتبران السّكن الاجتماعي يحتضن فئات اجتماعية متباينة، سواء من حيث الانتماء السوسيو - مهني، أو من حيث السن أو مسار الإقامة، فإن هذا التباعد الاجتماعي بين سكان التجمعات الكبرى، يحول دون

تعزيز روابط الجوار رغم القرب المجالي الذي يميز هذا النوع من السّكن. إن هذه المفارقة تبدو غائبة لدى الزوافرية، خاصة في الشقة والعمارات السّكنية، فكل القاطنين فيهما ينتمون إلى هذه الفئة الاجتماعية. أي أن القاطن في دار الزوافرية، لابد أن يكون زوفري، ذكر عازب ينتمي إلى نفس الجيل (تتراوح أعمار المستجوبين في هذه الدراسة ما بين 24 و32 سنة). فهذه المؤشرات تؤكد وجود قرب اجتماعي بين الزوافرية، إضافة إلى القرب المجالي الذي يترجمه المجال المشترك (الشقة والعمارة). وبالتالي فهذان البعدان يساهمان في تعزيز علاقات الجوار.

أمّا بخصوص الحيّ السّكني، فسمته الأساسية هي المسافة الاجتماعية، ولكن هذا لا يعني أن الزوافرية لا ينسجون علاقات في نطاقه، حيث نجدهم يقومون بانتقاء روابط غالباً ما تكون مع بعضهم البعض. أمّا علاقتهم بباقي سكان الحيّ، فتتخذ طابعاً خاصاً يتجلى في سعي العائلات التي تقطن بجوار الزوافرية لضبط سلوكهم عبر المراقبة والوصم، وهذا ما يجعل العلاقة الاجتماعية بين الطرفين لا تصبح مجهولة. وبالتالي فإن الزوافرية يعرفون أشكال مختلفة من العلاقات تختلف حسب المستوى المجالي الذي نحن بصدد دراسته.

يتضح من خلال هذه المقارنة أن روابط الجوار في ميدان البحث، تختلف عن الأحياء الأخرى، خاصة «الأحياء المحظوظة» التي تقطنها فئات اجتماعية «غنية»، كأحياء/الضيلات على سبيل المثال، ففي هذه الأخيرة توجد روابط ضعيفة بين الجيران (Bouchanine, 1986, p 296). إن المقارنة بين هذين النموذجين من الأحياء تبين أن للمجال دوراً أساسياً في التأثير على طبيعة العلاقات الاجتماعية. وهذا ما يثير مجدداً إشكالية العلاقة بين المجال والمجتمع التي طرحناها في المقدمة، فهل يمكن من خلال إنجاز سياسات عمرانية، تقوم على إنشاء الفضاءات العامة، تنمية علاقات المؤانسة والجوار في المدينة؟ إن هذا السؤال الذي يجيب عليه عبد الرحمان رشيق بالإيجاب (رشيق، 2018، ص 25-26)، يعيد النقاش حول المقاربات «السياسوية» التي تجعل من التنظيم الاجتماعي مفعولاً به من طرف التنظيم السياسي. لكن بالنظر إلى نتائج هذا البحث، يمكن انتقاد هذه المقاربة، لكونها تنظر إلى الحيّ السّكني باعتباره مجالاً متجانساً، في حين أنه يحتضن فئات اجتماعية متباينة، وبالتالي فلا يكفي إنجاز مشروع عمراني للتأثير على الرابط الاجتماعي، فهذا التفسير يختزل تنوع واختلاف الحاجات الاجتماعية للمجال (Pétonnet, 1972, p 47).

إن طبيعة السياسة العمرانية لا تكفي وحدها لتفسير قوة، أو تلاشي العلاقات الاجتماعية في الوسط الحضري، خاصة في السياق الاجتماعي الصغروي (micro)، الذي تلعب فيه الرهانات الفردية للفاعلين الاجتماعيين دوراً بارزاً في تحديد الروابط الاجتماعية، فكما اتضح فيما سبق، فإن

العلاقات الاجتماعية بين الزوافرية تتشكل في إطار مجالي محدود، يشكل فيه الحيّ السّكني الدائرة الأوسع لاحتضان هذه العلاقات.

من هنا، فإن هذا البحث يجعل من الحيّ، المجال الأمثل لدراسة العلاقات الاجتماعية، أي أن البحث في هذا الموضوع يجب أن ينطلق من الحيّ بدل المدينة، على عكس الدراسات السوسيولوجية الكلاسيكية في هذا الموضوع، فهذه الأخيرة تتحدث عن تراجع الرابط الاجتماعي في المدينة. إن التأكيد على عدم اعتبار المدينة وحدة مجالية متجانسة، يجعلنا ننقل إلى الحيّ باعتباره الوحدة المجالية الأمثل لدراسة العلاقات الاجتماعية. فبما أن المدينة تتشكل من أحياء متعددة، فإن الباحث في العلاقات الاجتماعية لابد أن يتوقف عند هذه الأحياء باعتبارها وحدات للبحث، وذلك لأن علاقات الاجتماعية تتشكل في وحدات اجتماعية صغرى، ولا يمكن أن ترتبط في شبكة واسعة لتشمل المدينة ككل.

قائمة المراجع

المرجع العربية

الإدريسي، الفقيه. (2004). "الكانون". في معلمة /المغرب. (الجزء 20 ص ص 6781-6782). الرابط: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر.

بدوي، أحمد زكي. (1978). معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية. بيروت: مكتبة لبنان.

رشيق، عبد الرحمان (2018). "السياسة العمرانية والعلاقات الاجتماعية في المغرب". مجلة عمران، المجلد 5، العدد 18، ص ص 7-32.

العطري، عبد الرحيم. (2016). قرابة /الملاح: الهندسة الاجتماعية للطعام. الدار البيضاء: شركة النشر والتوزيع المدارس.

مارشال، جوردن. (2000). موسوعة علم الاجتماع. ترجمة محمد الجوهري وآخرون. مصر: المجلس الأعلى للثقافة.

المالكي، عبد الرحمان. (2016). مدرسة شيكاغو: ونشأة سوسيولوجيا التحضر والهجرة. الدار البيضاء: أفريقيا الشرق.

المراجع الأجنبية

- ADAM, André. (1968). *Casablanca : essai sur les transformations de la société marocaine au contact de l'Occident*. Tome 2. Paris : CNRS.
- ANDEZIAN, Sossie, et STREIFF-FENART, Jocelyne. (1983). « relations de voisinage et contrôle social ». *Peuples Méditerranéens*, n° 22-23, pp 249-255.
- ARRIF, Abdelmajid. (1992). *Le passage précaire du bidonville au lotissement : Anthropologie appliquée d'une mutation résidentielle. Le cas de Hay Moulay Rachid à Casablanca*. (Thèse de Doctorat nouveau régime : Sociologie-Ethnologie : Université de Provence - Faculté des Lettres et Sciences humaines.
- ARRIF, Abdelmajid. (2017). « *Bidon/Ville, enfant illégitime de la modernité* ». Collection Graphiques, consulté le 13/02/2018. <https://bit.ly/2WlhqLj>
- AUTANT, Étienne. (2010). « Le partage : un nouveau paradigme ? ». *Revue du MAUSS*, n° 35, pp 587-610.
- BECKER, Howard S. (1985). *Outsiders : étude sociologique de la déviance*, traduit de l'américain par J-P. BRIAND, et J-M. CHAPOULIE. Paris : Éditions A.-M. Métailié.
- BENZAKOUR, Saad. (1978) *Essai sur la politique urbaine au Maroc 1912-1975 : sur le rôle de l'Etat*. Casablanca : les Éditions Maghrébines.
- BOUBEKER, Ahmed. (2003). *Les Mondes de l'ethnicité : la communauté d'expérience des héritiers de l'immigration maghrébine*. Paris : Éditions Balland.
- CHAMBOREDON, Jean-Claude, et LEMAIRE, Madeleine. (1970). « Proximité spatiale et distance sociale ». *Revue française de sociologie*, n° 11, pp 3-33.
- FORTIN, Andrée, et DELAGE, Denys, et DUFOUR, Jean-Didier. (1985). « Nouvelles familles, nouveaux réseaux ». *Anthropologie et Sociétés*, Vol 9, n° 3, 219-223.
- GOFFMAN, Erving. (1973). *La mise en scène de la vie quotidienne. 2 les relations en public*. traduit de l'anglais par Alain KIHM. Paris : Les Éditions de Minuit.
- HALL, Edward T. (1971). *La dimension cachée*. traduit de l'américain par Améli PETITA. Paris : Éditions du Seuil, 1971.
- IRES. (2012). *Rapport de l'enquête nationale sur le lien social au Maroc*. Rabat.
- JANNIÈRE, Hélène. (2008). « Planifier le quotidien. Voisinage et unité de voisinage dans la conception des quartiers d'habitation en France (1945-1965) ». *Strates*, vol 14, (consulté le 05/12/2018), mis en ligne le 04/03/2013. <https://bit.ly/39YlPnQ>.
- KAUFMANN, J.-C. (2006). *La femme seule et le Prince charmant*. Paris : Armand Colin.
- LE CORBUSIER. (1948). « L'habitation moderne ». *Population*, n°3, pp 417-440.
- LE CORBUSIER. (1994). *Urbanisme*. Paris : FLAMMARION.
- MCKENZIE, Roderick D. (1984). « le voisinage ». in : GRAFMEYER, Yves, et JOSEPH, Isaac (trad). *l'école de Chicago*. Paris : AUBIER.

- MICHEL, Barbara, et BASSAND, M, et LEHMANN, PH. (1982). le voisinage : un théâtre expérimental de la vie quotidienne. *Espaces et sociétés*, n° 41, pp 51-69.
- MONTAGNE, Robert. (2016). *Naissance du prolétariat marocain : enquête collective exécutée de 1948-1950*. (2^e éd). Rabat : CJB.
- Navez-BOUCHANINE, Françoise. (1986). Modèles d'habiter. *Annuaire de l'Afrique du Nord*, Tome 15, pp 281-298.
- Navez-BOUCHANINE, Françoise. (s.d.). l'espace limitrophe : entre le privé et le public. *Espace et Société*, n° 62-63, pp 135-159.
- PARK, Rbert E. (1984). la ville : propositions de recherche sur le comportement humain en milieu urbain. in : GRAFMEYER, Yves et JOSEPH, Isaac (trad). *l'école de Chicago*. Paris : AUBIER.
- PETONNET, Colette. (1972). Espace, distance et dimension dans une société musulmane : A propos du bidonville marocain de Douar Doum à Rabat. *L'Homme*, tome 12, n°2, pp 47-84.
- PICARD, Dominique, et MARC, Edmond. (2008). *Relations et communications interpersonnelles*. Paris : Dunod.
- RIoux, Jean-Pierre. (1971). *La révolution industrielle 1780-1880*. Paris : Éditions du Seuil.
- SAYAD, Abdelmalek. (1980). Le foyer des sans-familles. *ARSS*, n° 32-33, pp 89-103.
- SIMMEL, Georg. (2008). *Philosophie de l'argent*. Traduit de l'allemand par Sabine CORNILLE et Philippe IVERNEL. (2^e éd). Paris : QUADRIGE / PUF.
- VIEILLE, Andrée. (1954). Relations parentales et relations de voisinage chez les ménages ouvriers de la Seine. *Cahiers Internationaux de Sociologie*, Vol 17, pp 140-153.
- WAZIF, Mohamed. (2011). Le portefaix Un figure de la précarité à Casablanca. in : PERALDI, Michel, et TOZY, Mohamed. (dir). *Casablanca figures et scènes métropolitaines*. Paris : Karthala.
- WIRTH, Louis. (1984). le phénomène urbain comme mode de vie. in : GRAFMEYER, Yves et JOSEPH, Isaac (trad). *l'école de Chicago*. Paris : AUBIER.

الهوامش

- ¹ من خلال البحث عن تعريف لمفهوم الجوار في المعاجم والموسوعات المتخصصة، نلاحظ غياب التعريفات التي تخص هذا المفهوم، ووجدنا في بعض الموسوعات أن تعريف الجوار يشار إليه عند تعريف «المجتمع المحلي» (communauté) خاصة في موسوعة علم الاجتماع لـ «جوردن مارشال».
- ² لفهم التعريف السوسيولوجي لمفهوم الجوار عند بارك، وعند رواد مدرسة شيكاغو عموماً، فمن المفيد الرجوع إلى النص الذي كتبه (Roderick D. MCKENZIE) «رودريك ماكنتزي» وذلك

تحت عنوان «الجوار» (Neighborhood). فقد قام ماكيزي في هذا النص بجرد مجموع الكتابات التي اهتمت بمفهوم الجوار التي تنتمي أساسا إلى مدرسة شيكاغو.

³ يعود الاستعمال الذي نحدده هنا لمصطلح *العشرة* إلى مفهوم الوحدة البيئية، باعتبارها تتكون من مجموعة من الأفراد يقطنون في غرفة واحدة، وليس في شقة واحدة، إلى الاستخدام التاريخي والانثروبولوجي لمفهوم الكانون، فهذا الأخير يعد الوحدة الإحصائية في مغرب ما قبل الحماية (لا يزال هذا المفهوم يستعمل في بعض الأوساط القروية، خاصة تلك المتحدثة باللغة الأمازيغية)، وذلك بالنظر إلى طابعه الكمي والعددي، فقد اعتمده الباحثون كأساس إحصائي لتقدير عدد السكان. ويتأسس هذا المفهوم كما يتبين من معناه اللغوي على موقد النار الذي يطهى عليه الطعام. ومن هنا، فإننا اعتمدنا على نفس المبدأ في تصنيف الغرفة وليس الشقة باعتبارها تحتضن الوحدة البيئية، وذلك لأن لكل غرفة موقدها الخاص، وبالتالي فإن الشقة التي تحتوي على أربعة غرف، تحتوي بالمقابل على أربعة موقد (أربعة قنينات من الغاز) وكل موقد خاص بغرفة محددة (معلمة المغرب، 2004).

⁴ لقد استفاد عبد المالك صياد في الحديث عن هذه الوضعية الاجتماعية، خاصة لدى الجيل الأول من المهاجرين إلى فرنسا، حيث قام بالتطرق إلى السكن المؤقت المخصص للعمال المؤقتين، وينتهي هذا النوع من السكن المخصص لهذه الفئة الاجتماعية إلى مؤسسة رسمية تسمى: (Sonacotra). فالعمال المهاجرين الفقراء يعيشون في سكن فقير خاصيته الأساسية هي أنه مؤقت، وبالتالي فإن هذا السكن يشبه كثيرًا الفندق، بل يمكن اعتباره فندقًا ولكن على شاكلة مختلفة، خاصة أن الوظيفة الوحيدة التي يقوم بها هذا المسكن المؤقت هي النوم، لكونه عبارة عن غرف صغيرة تحتوي على أسرة للنوم (SAYAD, 1980).

⁵ تجدر الإشارة إلى أن التأثير لا يعني أن هناك حتمية في العلاقة بين المجال المجتمع، فطبيعة المجال لا تحدد بالضرورة طبيعة العلاقات، وإن وقع وكانت هناك علاقة سببية فلا يمكن حصرها في سبب واحد، فهناك دائما تعدد الأسباب والعوامل.